الدكتور "ب"

الاختصاص: طبيب تخدير تحت التمرين

السن: 28 سنة

لم تُستخدَم الأسماء الحقيقية للأفراد في هذا البوست حرصاً على سلامتهم.

"ما رَح مُوت إلا بْيومي."

الدكتور "ب" طبيبٌ عاينَ بنفسه الهجماتِ المتواصلةَ للنظام السوري على العاملين في المجالِ الطبي وعلى المرافقِ الطبية. وهو يعيش وزملاؤه في خوفٍ دائم من أن يتعرضوا لهجماتٍ إضافية، قلقينَ مِن أن يَسقطَ عليهم صاروخٌ آخرُ فيهدمَ المشفى على رؤوسِهم جميعاً. حتى صار يُرعبه سماعُ صوتِ طائرة وتُرعبه رؤيتُها مخافةَ أن تكونَ الهجمةُ التالية هيَ القاضية.

يعمل الآن في مشفيَيْن ميدانيَيْن اثنين داخل سوريا، تعرّضا كلاهما لهجماتٍ متعددة. وقع القصفُ الأول على أحدهما من الجو فأصابَ موقفَ السيارات فيه، الذي كان ممتلئاً بسيارات الإسعاف، فدُمِّر كثيرٌ منها. لم يُصَبِ المبنى الرئيسيُ للمشفى لكنّ الزجاجَ تهشم وجُرح ممرض. وبعد سنةٍ من ذلك، وقع الهجومُ الثاني بصاروخ فأصابَ نُصُباً قرب المشفى وقَتَلَ أربعة أشخاص: ممرضاً وصيدلياً وبنتاً في العاشرة كانت تقطن في الجوار وصاحبَ دكانٍ محلي، وأصاب بجراح كثيرينَ آخرين أحدُهم ممرض، ودَمر عدداً من السيارات الواقفة وسيارةَ إسعاف. وقد أرانا الدكتور "ب" صوراً فوتوغرافية لسيارته التي دُمرت تماماً.

أما المشفى الميدانيُ الثاني الذي يعمل به الدكتور "ب" فاستُهدِف أربعَ مرات. وبالرغم من نجاة المشفى من كثيرٍ من الهجمات التي لم تُلحِق به سوى أضرارٍ طفيفة، أدى انفجارُ سيارةٍ ملغومة على بعدِ مائتيْ متر تقريباً منه إلى مقتلِ عشرةِ أشخاص وإصابةِ أربعةٍ آخرين بجراحٍ خطرة نُقلوا على إثرها إلى تركيا للعلاج، لكنهم قضوْا جميعاً متأثرين بجراحهم. كما جُرح في الهجوم خمسةٌ وعشرون شخصاً آخر كُتبت لهمُ النجاة. يعتقد الدكتور "ب" أن سببَ استهداف هذا المشفى هو أنه يخدم المرضى جميعاً، ومنهم أولئك الذين صَدَفَ أنْ كانوا من المعارضة.

مِن أصعب المشاكل التي يواجهها الدكتور "ب" في عمله نقصُ الكوادر والتسهيلات الطبية. فقد كان الأطباء الآخرون يخشوْن العملَ في أحد المشفيَيْن لأن المنطقة محاطةٌ بقوى الأمن. وبالرغم من أن الدكتور "ب" طبيبُ تخدير، فإنه يقوم الآن بكل أنواع الإجراءات الطبية. ولقد كانتِ الكوادرُ في البدايةِ مِن الندرةِ بحيث اضُطر الدكتور "ب" أحياناً إلى قيادةِ سيارةِ الإسعافِ بنفسه ونقلِ مرضاه إلى تركيا.

يؤدي العملُ المتواصل ونقصُ الكوادر وضيقُ الوقت المتاح للأكلِ والصلاة إلى أن يشعرَ الدكتور "ب" وزملاؤه بالإعياء. ويمازحنا قائلاً إنه لا يستطيع حتى أن يتزوج لشدةِ الإجهاد وقلةِ الوقت في الحرب. وهو لا يكاد يهدأ له بال. ويقول إنه وإنْ كان شاباً في الثامنةِ والعشرين، فإنّ ما شاهده في السنوات الثلاث الماضية جعله يكبر بسرعة. وفوقَ ما يشعر به من توترٍ وإجهاد، يساوره القلق مِن أن يهدِدَ عملُه كطبيب سلامةَ أخيه الذي يعيش في منطقةٍ واقعةٍ تحت سيطرة النظام. لكنه، وبالرغم مما يتعرض له مِن تهديد، مصممٌ على البقاء ومواصلةِ عملِه قائلاً، *"ما رَح مُوت إلا بْيومي."*

كذلك وقد شاهد الدكتور "ب" لدى بعضِ مرضاه دلائلَ على تعرُضهم للتعذيب. لكنَّ ذلكَ قَلَ مع الوقت كما يقول. ففي بداية الصراع، كان ثمة مَن يخرج مِن السجن، لكنَّ الذي في السجنِ الآنَ يموت، وبالتالي لا يستطيعون أن يُظهروا للعالمَ العلاماتِ البدنيةَ للتعذيب التي تبقى مدةً طويلة بعد الاعتداء. ويتحدث عن صديقٍ له تعرَّض لصعقٍ بالكهرباءِ في السجن؛ فيقول إنَّ لديه انهتاكاتٍ في ساقيه وشللاً في يده. وقد استَخدم عناصرُ الأمنِ معه مسدساً صاعقاً صعقوه به في عضوه التناسلي واعتدوْا عليه جنسياً –يعتقد الدكتور "ب" أن الاعتداءَ الجنسي انتهاكٌ يتعرض له جُلُ الرجالِ الذي يمرون بتجربة الحبس في سوريا. كما يَذكرُ أنَّ زميلاً له ممرِضاً حُبِسَ وضُرِب، وشخصاً آخرَ مريضاً ضُرِب كذلك؛ ضَرَبَه أفراد من الجيش السوري الحر. يقوم الدكتور "ب" بعمله ويعالج هؤلاء المرضى بأفضل ما يستطيع، لكنْ أنْ يكونَ شاهداً على ارتكاب هكذا فظائع، فإنّ هذا ينال من نفسِهِ كلَ منال.

ولقد أثَّرَ الصراعُ كذلك على قدرة الدكتور "ب" على إتمام شهادته الطبية. فقد درس الطبَ ستَ سنين وأتمَ مِن تدريبه على التخدير سنة قبل أن تُجبرَه الحربُ على التوقف، بعد أن رأى أنّ بقاءه في المشفى الحكومي المرتبطِ بكلية الطب التي يدرس فيها بات خطِراً جداً. وقد أغاظه كثيراً ألا يكونَ لديه جوازُ سفر يتيح له إتمامَ دراستِه الطبيةِ في الخارج، إذْ يعتقد أن الأطباءَ الذين أتموا دراستَهم يَحظوْن باحترامٍ أكبر.

يَختم الدكتور "ب" قصتَه بالقول إنّ الظروفَ في المشفى *"هَلأ جنة"* بعد التحسن الطفيف في عدد الكوادر –وهذه عبارةٌ ساخرة أنْ تَصدُرَ مِن شخصٍ تعرَّض لهجماتٍ كثيرة ويواجه في كل يوم تهديداً حقيقياً بقصفٍ جوي قد يودي بحياته. لكنه ليس دوْماً على هذا القدر من التفاؤل؛ فعندما يُسأل كيف يمكن أن يساعدَ الناسُ الناسَ بسوريا يجيب *"العالم كُله دَرلنا ضَهرُه."*